(١٤)
التـوكـل

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

كنا قد تحدثنا عن شعب الإيمان ، وتحدثنا عن بعض الشعب ، واليوم نتحدث عن شعبة أخرى وهي : التوكل على الله تبارك وتعالى .

معنى التوكل على الله :

والتوكل على الله : أن تجعل الله تعالى وكيلاً لك ، تسلم إليه زمام أمورك ، وتفوِّض إليه كل شؤونك ، وهو عمل من أعمال القلوب ، وخلق من أخلاق الإيمان ، ومنزلة من أعظم منازل الدين ، حتى قال الإمام ابن القيم[1] : هو نصف الدين ، والنصف الثاني : الإنابة ، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨) ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(الفاتحة:٥)، فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة .

التوكل استعانة بالله ولجوء إلى الله عزَّ وجلَّ ، واعتصام بحصنه الحصين وركنه الركين في مواجهة الأزمات والملمات التي تلم بالإنسان .

أمرُ الله تعالى رسولَه ﷺ بالتوكل :

ولهذا أمر الله تعالى به رسوله ﷺ في عشر آيات من كتابه ، فقال سبحانه :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (النساء:٨١) .

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ (النمل:٧٩) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء:٢١٧) .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٨) .

---

(١) في مدارج السالكين (١١٨/٢) ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت .

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (المزمل:٩) .

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران:١٥٩) .

﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

(الأنفال:٦١) .

﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (هود:١٢٣)

التوكل من أخلاق الأنبياء :

التوكل هو خلق رسول الله ﷺ ، وهو خلق الأنبياء والرسل من قبله . الأنبياء والرسل واجهوا أقوامهم المكذبين لهم بمقام التوكل على الله عزَّ وجلَّ ، ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ (إبراهيم:١٠) ، فكان رد الرسل عليهم : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

(إبراهيم:١١،١٢) .

بالصبر والتوكل ، يواجه الأنبياء أقوامهم المعاندين .

فالتوكل خلق المؤمنين ، وخلق النبيين جميعًا .

نوح ـ عليه السلام ـ قال لقومه : ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (يونس:٧١).

وكذلك قال هود لقومه : ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ﴾ (هود:٥٥،٥٦) . وكذلك قال موسى لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(يونس:٨٤-٨٦).

كل الأنبياء كانوا متوكلين على الله عزَّ وجلَّ في مواجهة الباطل المتجبر المدجج بالقوة ، المسلح بالمال .

التوكل والأسباب :

وليس من شأن التوكل ترك الأسباب . التوكل عمل من أعمال القلوب ، فلا ينافي أن تأخذ الجوارح بالأسباب التي قدَّرها الله والتي شرعها لعباده . ولهذا حينما جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ومعه ناقته وقال : يا رسول الله ، أأدع الناقة وأرسلها طليقة حرة ، وأتوكل على الله؟ أم أقيدها وأتوكل؟ فقال النبي ﷺ : «قيِّدها وتوكَّل»[1] . هذا نصٌّ حاسم في مراعاة الأسباب .

ترك الأسباب مناف للسنة :

أما الذي يحكي عن بعض الصوفية الذين غلبت عليهم أحوالهم فتركوا الأسباب ، فهذا مناف لسنة رسول الله وسنة الأنبياء من قبله .

فرسول الله ﷺ قد أعدَّ العدة ، وهيّأ الأسباب ، وعمل كل ما يستطيع في حياته . في غزواته أرسل العيون والطلائع لاستكشاف أمر الأعداء ، وكان إذا أراد غزوة ورى بجهة غيرها حتى يعمي على الأعداء فلا يعرفون إلى أي جهة يقصد ، لم يخالف ذلك إلا في غزوة تبوك لخطرها وبعد الأعداء عنه .

كان هذا شأنه ﷺ ، وكان يظاهر بين درعين أحيانًا (يلبس درعين في الحرب) ، وقد اختبأ في الهجرة ، واختبأ في غار بعيد عن أعين المشركين ولم يكن في طريق المدينة ، في الجنوب لا في الشمال ، وادخر لأهله قوت سنة من الحبوب ، هكذا كان عليه الصلاة والسلام .

الرسول والأخذ بالأسباب في أمور الدنيا والدين :

لم يكن يهمل أمر الأسباب في أمر الدنيا ولا أمر الدين ، حتى أنه بعد الهجرة إلى المدينة طلب إحصاءً لأصحابه ، قال لهم : «أحْصُوا لي كم يلفظ الإسلام»[2] ،

---

(١) رواه ابن حبان في الرقاق (٧٣١) ، وقال الأرناؤوط : حسن ، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٩٧٠) ، عن عمرو بن أمية .

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٤٩) ، وأحمد (٢٣٢٥٩) ، عن حذيفة .

فأحصوا له فكانوا ألفًا وخمسمائة رجل . أراد أن يعرف مقدار القوة الضاربة عنده ، ليبني خططه على أساسها .

وفي بعض الروايات : «اكتبوا لي»[1] ، فكان إحصاء كتابيًا منظمًا ، وهو أول إحصاء يعرفه التاريخ[2].

وكان عليه الصلاة والسلام ينظِّم أمر المستقبل ، فما كان يدع الأمور تجري في أعنَّتها ، وإنما يأخذ لكل أمر عدته التي أمر الله بها ، وقد قال تعالى في كتابه : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال:٦٠) ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾ (النساء:٧١) . وفي صلاة الحرب ـ صلاة الخوف ـ أمر الله المسلمين أن يكون جزء منهم في الصلاة وجزء منهم في مواجهة العدو ، وأمر الجزء الذي يصلي أن يأخذ أسلحته معه : ﴿ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء:١٠٢).

ولهذا كانت سنة النبي ﷺ اتخاذ الأسباب ، وسنة الرسل من قبله اتخاذ الأسباب .

نماذج لبعض الأنبياء في أخذهم بالأسباب :

نجد نوحًا عليه السلام قد أمره الله تعالى بأن يصنع الفلك ليحمل فيها من آمن معه ، ويحمل فيها من كل شيء زوجين .

ونجد يعقوب عليه السلام يقول لابنه يوسف وقد قصَّ عليه الرؤيا : ﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٦٠) ، عن حذيفة .

(٢) اقرأ ما كتبه الشيخ القرضاوي عن استخدام النبي ﷺ لأسلوب الإحصاء في كتابه (الرسول والعلم)، تحت عنوان : (الرسول والعلم التجريبي) .

مُّبِينٌ ﴾ (يوسف:٥) . ويقول لأبنائه وهم ذاهبون إلى مصر : ﴿ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (يوسف:٦٧) . سواء كان يخاف عليهم من العين كما قال أكثر المفسرين ، أو يخاف عليهم أمرا آخر يتعلق بالسياسة ، فهو يريد أن يحتاطوا ولا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا من أبواب متفرقة .

ونجد يوسف عليه السلام يضع خطة للخروج بمصر وما حولها من مأزق القحط والمجاعة ، فيضع خطَّة خمس عشرية في خمس عشرة سنة يستطيع بها أن ينجو بمصر وما حولها من أزمة القحط وأزمة المجاعة التي حدثت في تلك الأيام . وفعلا رسم الخطة ، ووضع هو على رأسها لتنفيذها . وقد نجّى الله مصر وما حولها ببركة هذا التخطيط مع توكله على الله تبارك وتعالى .

ونجد موسى عليه السلام يُوحي إليه ربه : ﴿ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ (الشعراء:٥٢). لماذا أمره الله أن يسري بهم بالليل؟ ليكون الليل ستارا لهم . وهكذا نجد موسى حينما سافر مع صاحبه ـ مع فتاه يوشع بن نون ـ يأخذ معه غداءه ويقول : ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ﴾ (الكهف:٦٢) .

ونجد فتية أهل الكهف يأخذون معهم ـ حينما أرادوا دخول الكهف ـ بعض الوَرِق (أي : النقود الفضية) ويقولون حين استيقظوا : ﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴾ (الكهف:١٩) ، كما أخذوا معهم كلبهم للحراسة .

وهكذا نجد القرآن الكريم مملوءًا بالأمر برعاية الأسباب ورعاية السنن الكونية : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك:١٥) ، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الجمعة:١٠) .

وهكذا كان المسلمون ينتشرون في الأرض ، يعملون ويبيعون ويشترون قبل الصلاة ، فإذا سمعوا النداء تركوا البيع وأقبلوا على الصلاة وعلى ذكر الله ، فإذا فرغوا من الصلاة انتشروا في الأرض مُبْتغين من فضل الله . وحينما رأى عمر بعض الناس في المسجد بعد الصلاة قابعين سألهم : من أنتم؟ قالوا : نحن المتوكلون على الله . قال : بل أنتم المتأكّلون ، أما سمعتم قول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة:١٠) . لا يقعدنَّ أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : اللهم ارزقني . وقد علم أنَّ السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة . وعلاهم بدرته وأخرجهم من المسجد .

من ثمار الأخذ بالأسباب :

إنَّ الأسباب مشروعة واتِّخاذ الأسباب ورعايتها أمر مشروع ، وهذا ما كان عليه المسلمون في الأزمنة الأولى . وبرعاية هذه السنن واتِّخاذ هذه الأسباب أقاموا حضارة العلم والإيمان ، أقاموا أعظم حضارة في التاريخ ، حضارة جمعت بين الربَّانية والإنسانية ، حضارة جمعت بين الجانب الماديّ والجانب الإيمانيّ والجانب الأخلاقيّ . هذا ما صنع المسلمون حينما وعوا عن الله ورسوله ، وفقهوا عن الله ورسوله .

هذا هو أمر التوكل :

التوكل أن تأخذ بالأسباب وتدع النتيجة لرب الأرباب ، أن تبذر الحب وترجو الثمار من الرب . هذا هو التوكل على الله تبارك وتعالى .

متى تذمُّ الأسباب :

ولا تذم الأسباب إلا إذا كان الإنسان مُعوِّلاً عليها وحدها . إذا كان مُعوِّلاً عليها دون مسبِّب الأسباب ، إذا كان يعتقد أن راتبه وحده هو الذي يطعمه ، ويكفيه حاجته ، وأنَّ رئيسه هو الذي يجلب له الخير ، فهذا إنسان يتوكل على الوزير ، أو يتوكل على المدير ، أو يتوكل على الأمير ، أو يتوكل على الرئيس ، أو يتوكل على أرضه ، أو يتوكل على دكانه ، أو يتوكل على معاشه . لا ، ليكن توكلك على الله عزَّ وجلَّ . لا تتوكل على شيء ، أو على شخص ، فقد يذهب هذا الشيء ،

وهذا الشخص ، اليوم أو غدا أو بعد غد ، كما قال ابن عطاء : « إن أردت أن يكون لك عزٌّ لا يفنى ، فلا تستعزنَّ بعز يفنى »[1].

فمن هنا ينبغي أن لا يعول الإنسان على الأسباب وحدها ، يستخدمها أداة في يده ووسيلة مشروعة ، ولكن اعتماد قلبه على الله عزَّ وجلَّ مسبب الأسباب . هذا ما ينبغي للإنسان أن يعمله . المسلم يعمل ما يستطيع ويدع الباقي على ربه سبحانه ، فالقدرة المطلقة تكمل ما تعجز عنه الأسباب المحدودة .

صور من التوكل على الله :

نجد موسى عليه السلام حينما أمره الله تعالى أن يسري بعباده ليلاً ، فسرى بعباد الله من بني إسرائيل ، وخرجوا ، وخرج فرعون وجنوده وراءهم ، حتى وصل موسى البحر ، وصار البحر أمامه والعدو من خلفه ، ولا حول له ولا طول ، ليس معه العدد ولا القوة التي يواجه بها فرعون وأجناده . هنا قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ (الشعراء:٦١) سيدركنا فرعون وجنوده لا محالة ، فماذا قال موسى؟ قال موسى في ثقة المؤمن وإيمان الواثق : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) . تذكر موسى أن الله معه ، فقد قال له حينما بعثه إلى فرعون : ﴿ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾(طه:٤٦)، فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) : سيهديني لحلٍّ ولمخرج ، لا أعرف ما هو ؟ ولكني واثق منه ، مؤمن به .

هنالك أوحى الله إلى موسى : ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ (الشعراء:٦٣) . وماذا تفعل العصا ببحر هائج الأمواج . بحر متلاطم؟ ولكنه نفذ الأمر ، فضرب بعصاه البحر ﴿ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (الشعراء:٦٣) . وهنا جاء فرعون بجنوده ليجري وراء موسى ويركض من خلفه ، وعبر موسى بقومه ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده .

على الإنسان المؤمن أن يعمل ما تتيحه له الأسباب ويدع الباقي لله سبحانه وتعالى .

---

(١) الحكمة السادسة والثمانون من الحكم العطائية .

حُسن التدبير مع التوكل :

يتجلَّى ذلك في وضع النبي عليه الصلاة والسلام في أمر الهجرة فقد رتَّب فأحسن الترتيب ، ودبَّر فأحكم التدبير . هيَّأ الرواحل ، وهيَّأ الرفيق الذي يصحبه في الهجرة : أبا بكر ، وهيَّأ الدليل الذي يدله على الطريق : عبد الله بن أُريقط ، وهيَّأ المخبأ الذي يختبئ فيه حتى يخفَّ الطلب عنه : غار ثور في جنوب مكة ، وهيَّأ من يأتي له بالزاد والأنباء : أسماء بنت أبي بكر ، وهيَّأ من يعفي على آثارها حتى لا تتبع أقدامها : عامر بن فهيرة . فعل كل ما يمكن أن يخطر ببال بشر من حُسن الترتيب والتدبير ، ولكن القوم مع هذا استطاعوا أن يصلوا إلى الغار الذي فيه النبي عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبو بكر ، وقال أبوبكر في إشفاق على الدعوة ومصيرها : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا . يعني يكفي أحد هؤلاء أن ينظر إلى ما تحت قدميه ليرانا في الداخل .

فماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] أو كما قال القرآن : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠) . ما أشبه هذه الكلمة بكلمة موسى : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ (الشعراء:٦٢) .

بين الكلمتين قرون ، ولكن كلتاهما تصدر من مشكاة واحدة .

﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۚ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٤٠) .

قوة التوكل على الله عز وجل :

إنَّ التوكل على الله عزَّ وجلَّ يورث المؤمن قوة ، هذه القوة التي رأيناها في محمد ﷺ وهو في الغار ، وفي موسى عليه السلام وهو أمام البحر ، ووجدناها عند

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨١) ، كلاهما في فضائل الصحابة ، كما رواه أحمد (١١) ، والترمذي في التفسير (٣٠٩٦) ، عن أبي بكر الصديق .

هود عليه السلام وقد خوَّفه قومه من المشركين أن تعتريه آلهتهم بسوء فقال لهم : ﴿ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (هود:٥٤-٥٦).

وجدناها عند شعيب ، وقد هدَّده قومه المشركون : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ فماذا قال شعيب؟ ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ﴾ (الأعراف:٨٨،٨٩) .

بهذه القوة واجه هؤلاء الأنبياء قومهم المشركين .

إنَّ الذي يتوكل على الله عزَّ وجلَّ يعتصم بقوة كبرى ، هي قوة الرب العظيم جبار الأرض والسموات ، فهو لا يبالي بخلقه ، ولا يبالي بالناس قلوا أم كثروا ، صغروا أم كبروا .

انظر إلى ذلك الشاب الذي ركب سيارته الملغومة ، وصدم بها الباص الإسرائيلي وحدث ما حدث من قتل نحو عشرة وإصابة أكثر من خمسين . ما الذي جعله يفعل هذا؟ إنَّه التوكل على الله عزَّ وجلَّ ، إنه لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

هذه هي قوة التوكل على الله عزَّ وجلَّ .

ومن هنا كان المتوكل من أقوى الناس ، وفي الأثر : «مَن سرَّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»[1] .

---

(١) رواه الحاكم في الأدب (٤/٢٧٠) ، وقال : هذا حديث صحيح ، قد اتفق هشام بن زياد النصري ، ومصادف بن زياد المديني على رواية عن محمد بن كعب القرظي ، والله أعلم . ولم أستجز إخلاء هذا الموضع منه فقد جمع آدابًا كثيرة ، وقال الذهبي : هشام ـ وهو ابن زياد ـ متروك ، ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني فبطل الحديث ، قال المناوي في فيض القدير (٦/١٩٣) : رواه ابن أبي الدنيا في الأخلاق عن ابن عباس ، ورمز ـ أي السيوطي في الجامع الصغير ـ لحسنه ، وضعفه الألباني جدًا في الضعيفة (٤٦٠٢) ، عن ابن عباس .

التوكل على الله يورث المؤمن عزَّة النفس :

وبجانب القوة ، فإنَّ التوكُّل على الله يورث المؤمن عزَّة النفس ، يشعره بأنه عزيز لأنه متوكِّل على عزيز حكيم ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال:٤٩) ، عزيز : لا يذل من لاذ بجنابه ، حكيم : لا يضيع من وثق بتدبيره ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء:٢١٧) .

فهذا هو شأن المتوكل ، إنه إنسانٌ عزيزٌ . إذا ذلَّ الناس أمام لقمة العيش أو أمام نفوذ الأقوياء والأغنياء وأهل الحكم والسلطان ، فإنه لا يذل ، ولا يحني رأسه ولا يطأطئ جبهته إلا لله عزَّ وجلَّ .

اجعل بربك شأن عزِّك يستقر وَيَثْبتُ فإذا اعتززتَ بمَن يموت فإن عزَّك ميت

اجْعَل عزَّتك بالله تكن عزيزًا : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ (فاطر:١٠) ، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (المنافقون:٨) .

من آثار التوُكل : الرضا :

فالمتوكل يرضى بما قَسَم الله له ، وبما قضى الله له ، ولذلك لما سُئل بعضهم : ما هو التوكل؟ قال : أن ترضى بالله وكيلاً : ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (النساء:١٧١) .

إذا رضيتَ بالله أصابك الرَّوْح والفَرَح كما في قول ابن مسعود : « إنَّ الله عزَّ وجلَّ بقسطه جعَل الفَرَح والرَّوْح في الرِّضى واليقين ، وجَعَل الغمَّ والحزن في السخط والشك »[1] .

ومن آثار التوكل : سكينة النفس وطمأنينة القلب :

فالمتوكل آمنٌ إذا خاف الناس ، مطمئنٌ إذا قلق الناس ، راض إذا سخط الناس ، يقف على أرض صُلبة ، بتوكُّله على الله عزَّ وجلَّ ، لا يخشى على الرزق ، ولا يخشى على الأجل ، ولا يخشى على نفسه ، ولا يخشى على أحد من أهله ، ولا ممَّن حوله ممَّن يحب ، لأنه يعلم أنَّ الرزق معلوم ، والأجل محتوم ، وأنَّ

---

(١) رواه هناد في الزهد (٥٣٥) ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧٥/٣٣) ، موقوفًا ، على ابن مسعود .

أحـدًا لا يستطيع أن يأكل من رزقك مثقال حبة ، وأنَّ أحدًا لا يستطيع أن يقـدِّم أجـلك أو ينقصه ساعة أو لحظة : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون:١١).

ولهذا حينما ذهب بعض الناس ـ أيام الفتح الإسلامي ـ إلى بعض المجاهدين يقولون لهم : كيف تجاهدون وكيف تتركون أولادكم من بعدكم؟ قالوا لهم : (علينا أن نجاهد في سبيله تعالى كما أمرنا ، وعليه أن يرزقنا كما وعدنا) . ويأتون إلى امرأة المجاهد يُخوِّفونها : ماذا ترك لك أبو فلان ؟ وكيف تعيشين ؟ ومن أين ترزقين ؟ فتقول لهم : إنَّ أبا فلان ـ تعني زوجـهـا ـ مـنـذ تزوَّجـتـه عرفـتـه أكَّالاً وما عرفته رزَّاقًا ، فلئن ذهب الأكَّال لقد بقـي الرزَّاق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٨) ، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (هود:٦).

ومن آثار التوكل : الأمل :

إنه يزرع الأمل في القلوب والرجاء في النفوس ، فإذا الإنسانُ المتوكِّل يرى الحياة وقد ابيضّ سوادها ، وأشرق فجرها ، وذهب ليلها ، وزال غمُّها وكربها . يرى الفَرَج بعد الكَرْب ، واليُسْر بعد العُسْر ، والشفاء بعد المرض ، وهكذا : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥،٦)، وإنَّ دوام الحال من المحال .

وَلَرُبَّ نازلة يضيقُ بـــها الفَــتى ... ذَرْعًا وعنـــد الله منــها المَخـْـرَج
ضَاقَت فلمَّا استحكمت حَلَقاتــها ... فُرِجَت وكنتُ أظنُّها لا تُفْــرَج[1]

ولهذا وجدنا إبراهيم عليه السلام حينما جاءته الملائكة مُبشِّرين له بغلام عليم ، ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۞ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۞ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر:٥٤-٥٦).

ويعقوبُ عليه السلام يقول لأبنائه وهم ذاهبون إلى مصر في جَـوْلة من جولاتهم : ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ

(١) من شعر الإمام الشافعي .

﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) . بعد مضيِّ سنين وسنين على يوسف ، لم ييأس من أن يجمعه الله به . وقبل ذلك قال : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٨٣) . هذا هو شأن المتوكل على الله .

شأن المتوكِّل على الله عزَّ وجلَّ أنه دائمًا في سكينة نفس ، أنه قويٌّ ، أنه عزيز ، أنه راض بما قسم الله عزَّ وجلَّ ، أنه آمل في رحمة الله وفي غدٍ أفضل . هذا هو شأن الإنسان المتوكل على ربِّه عزَّ وجلَّ .

من عَرَفَ ربه توكَّل عليه :

فما الذي يجعل الناس يتوكَّلون بعضهم على بعض ولا يتوكلون على الحيِّ الذي لا يموت؟ إنَّ من عرف ربَّه توكَّل عليه ، لأنه متوكِّل على حيٍّ قيوم لا يموت ، ولا يغفل ولا ينام ، بيده مقاليد السموات والأرض ، خزائن كل شيء بيده .

من عرف مقام الله عزَّ وجلَّ اعتمد عليه وتوكَّل عليه . ومن وثق بالله عزَّ وجلَّ فإنه لا بد أن يعتمد عليه ويتوكل عليه ، لأنه يثق بأنه سبحانه هو الذي يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، ويخفض ويرفع ، ويعز ويذل ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام:١٧،١٨) .

ما يمنع الناس من التوكل على الله :

الجهل بمقام الله تعالى ، والجهل بعجز النفس وعجز الآخرين ، هو الذي يجعل الناس لا يعتمدون على الله سبحانه وتعالى .

الجهل بقيمة الدنيا ، وحبُّ الدنيا والاغترار بها ، والركون إليها ، والركون إلى الخلق ، هو الذي جعل الناس لا يتوكَّلون على الله عزَّ وجلَّ .

ما أحوجنا نحن المسلمين في هذا العصر إلى أن نضع أيدينا في يد الله ربنا ، وأن نتوكل عليه سبحانه في مقاومة أعدائنا ، وتحرير أوطاننا ، واستعادة مقدَّساتنا ، وتحكيم شريعتنا في أرضنا .

التوكل على الله من أجل النصر ومواجهة القوى العاتية :

ما أحوجنا ـ نحن المسلمين ـ إلى أن نتوكّل على الله ونحن نواجه القوى العاتية . فراعنة الأرض ، وهوامينها ، وقوارينها ، والطغاة فيها . لكن معنا القوة التي لا تقهر ، والعلم الذي لا يجهل ، والإرادة التي لا يحدّها حدٌّ ولا يعجزها ضدّ ، إنما أمره سبحانه إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن فيكون .

إذا أردنا أن نُحرِّر فلسطين ، إذا أردنا أن نُحرِّر البوسنة والهرسك ، إذا أردنا أن نُحرِّر الصومال ، ونُحرِّر أريتريا ، ونُحرِّر الفلبين ، ونُحرِّر الحبشة ، ونُحرِّر الأرض التي يحكمها غير المسلمين ، فعلينا أن نتوكل على ربنا سبحانه وتعالى .

إذا توكلنا عليه فإنه سيعطينا مفاتيح القوة لهذا الكون كله ، سيعطينا مفاتيح القوة وسينزل علينا بركات من السماء والأرض ، ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة:٥١،٥٢).

إنما انتصر رسول الله ﷺ وأصحابه بهذا الإيمان القوي . . . بالتوكل على الله . بإخلاص العبادة والاستعانة بالله وحده . بمقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) . بمقام ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨) . بهذا وحده انتصروا على عدوِّ الله تعالى وعدوِّهم .

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صَلَح به أوَّلها ، فعلينا أن نتوكَّل على الله ، وأن نضع أيدينا في يد الله عزَّ وجلَّ ، وأن نطلب من الله سبحانه وتعالى أن يُهيِّئ لنا من أمرنا رشدًا ، ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾(الأعراف:٨٩)، ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(الممتحنة:٤،٥).

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* * *

(١٥)
الشكر

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

العبادات القلبية :

لا زلنا نتحدث عن أعمال القلوب . عن العبادات القلبيَّة التي يغفلها الكثير من الناس ولا يهتمون إلا بالعبادات الظاهرة .

تحدَّثنا عن الورع ، وتحدَّثنا عن الزهد ، وتحدَّثنا عن التوكل ، وكلها من مقامات الدين ، ومن أبواب الإيمان واليقين . ومن طاعات القلوب ، ونتحدَّث اليوم عن الشكر . شكر الله تبارك وتعالى على نعمه .

فضل منزلة الشكر :

والله سبحانه وتعالى أمر بالشكر ، وأثنى على أهله ، وجعله من أخصِّ أوصاف عباده المُصْطَفَيْن الأخيار من المرسلين والصَّالحين ، ووصف نفسه بأنه شاكر وشكور .

يقول الله تبارك وتعالى لرسوله محمد ﷺ : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٦) ، ويقول تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥٢) ، ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (لقمان:١٤) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (لقمان:١٢).

الشكر من أخصّ أوصاف الصالحين :

وصف الله نوحًا عليه السلام بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (الإسراء:٣)، ومدح خليله فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ

ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(النحل:١٢٠،١٢١) ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ ﴾ فوصفه بالشكر .

الشكر من أخصِّ أوصاف عباد الله الصالحين .

قلَّة الشاكرين في الخلق :

ولعلوِّ رتبة الشكر قال سبحانه : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣) الذي يعرف قيمة النعمة ويعرف فضل المنعم ويؤدِّي حقه .

وعرف ذلك إبليس اللعين ، فقال : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الأعراف:١٦) ، قالوا : هو طريق الشكر ، ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾(الأعراف:١٧).

وقد صدق ظنُّ أبليس ، فأكثر الناس لا يشكرون ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة:٢٤٣) .

أركان الشُّكر :

الشكر مقامٌ من مقامات الدين ، وبابٌ من أبواب الإيمان . والشكر له أركان ثلاثة :

١- عمل بالقلب .
٢- وقول بالسان .
٣- وحركة بالجوارح والأركان .

شكر القلب :

أول شيء : شكر القلب . ولهذا حينما نزلت آية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:٣٤) قالوا : فأيُّ المال نتَّخذ يا رسول الله؟ قال :« ليتخذ أحدكم قلبًا شاكرًا ، ولسانًا ذاكرًا »[1].

---

(١) رواه أحمد (٢٢٤٣٧) ، وقال مخرِّجوه : حسن لغيره ، والترمذي في التفسير (٣٠٩٤) ، وقال : حديث حسن . وابن ماجه في النكاح (١٨٥٦) ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢١٧٦) ، عن ثوبان .

فأصل الشكر في القلب . . . عمل قلبي ، أن تعترف من قرارة نفسك وسويداء قلبك بقيمة النعمة ، وتعترف بفضل من أنعم بها عليك .

شكر الله : أن يكون لك قلبٌ شاكر ، وأن تعرف أنَّ كلَّ ما بك من نِعَم فإنَّما مصدره الله عزَّ وجلَّ ، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣).

أول ما ينبغي على الإنسان أن يعرفه : أنّ نعم الله سبحانه وتعالى عليه لا تعدُّ ولا تحصى ، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم:٣٤) .

معرفة قَدْر النِّعم :

من آفات هذا العصر : أن الناس لا يقدرون نِعَم الله تعالى حقَّ قدرها . كان آباؤنا وأجدادنا من قبلنا يعرفون النعمة حتى في اللقمة الخشنة ، وحتى في شربة الماء ، يأكل أحدهم الطعام القليل ، والخبز الخشن ، ويشرب من القُلّة أو من القِربة ، ثم يقول : الحمد لله ، اللهم أدمها نعمة واحفظها من الزوال !

الناس الآن تفيض عليهم النعم فيضًا ، يعيشون في النعم من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم ، ولا يحمدون الله تبارك وتعالى . لا يعرفون للنعم قدرها ، استسهلوا هذه النعم ، جاءتهم دون أن يكدحوا أو يتعبوا في تحصيلها .

انظروا هنا : أصل النعم التي يعيش فيها الناس في هذه البلاد (النفط . البترول) . من الذي صنع هذا البترول؟ هل أنتم خلقتموه وأنشأتموه؟ لا والله . الله هو الذي صنعه في باطن الأرض ، وأخرجه لكم نعمةً سابغةً لم تكدحوا فيها بيمين ، ولم تعرقوا فيها بجبين ، هل يقول الناس : الحمد لله ؟ لا .

نحن في عصر قلَّ فيه الشاكرون ، كَثُر فيه الكافرون بنعمة الله عزَّ وجلَّ . ما عاد الناس يقدرون النعمة أبدًا .

أول الشكر : أن تعترف بقدْر النعمة ، وكثيرٌ من الناس لا يعرف النعمة إلا إذا زالت عنه .

كم من النعم يحملها الإنسان؟ نِعَمٌ كثيرةٌ .

دخل أحد الوعَّاظ على أحد الخلفاء ، فقال له : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، هب أنك كنت في صحراء فعطشت ولم تجد ماء إلا عند رجل كان معه كأس من ماء ، فقال لك : أعطني نصف ملكك وأعطيك هذه الكأس لترتوي بها . فقال : أعطيه نصف ملكي ولا أموت . قال : هَبْ أن هذا الماء حُصر فيك ولم تستطع أن تخرجه ، فجاءك طبيب وقال لك : أعطني نصف ملكك الباقي هذا وأنا أداويك ليخرج البول منك . فقال : أعطيه . قال : فانظر ملكًا لا يساوي شربة وبولة[1]!

نحن نشرب الماء باردًا زلالاً ، ولكنا لا نعرف قيمته ، لا نعرف قيمة ما عندنا من نِعَم .

من نعم الله عليك : أنه خلقك إنسانًا :

النِّعم كثيرةٌ وكثيرةٌ جدًّا .

أول نعمة أنعمها الله تعالى : أنه خلقك ، ولم تكن شيئًا مذكورًا إذ أخرجك من العدم إلى حيِّز الوجود .

ثم إنه خلقك بشرًا سويًّا ، لم يخلقك حيوانًا أعجم ، لم يخلقك تيسًا ولا حمارًا ولا بقرة ولا ثورًا . خلقك إنسانًا ، كرَّمك بهذه الإنسانية .

ومعنى أنه خلقك إنسانًا : أنه علَّمك البيان ، ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٣،٤) ، البيان النطقي باللسان : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ (البلد:٨،٩) ، والبيان الخطي بالقلم : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق:٤،٥) .

معنى أنه خلقك إنسانًا : أنه ميَّزك بالعقل ، أعطاك هذا العقل الذي تُسخِّر به الأشياء من حولك ، وتتميَّز به على الحيوانات التي هي أكبر منك حجمًا وأشد منك قوة .

هذا كله من فضْل الله تعالى ومن نعمه عليك .

---

(١) رواه ابن جرير في تاريخه (٢٢/٥) ، قصة حدثت بين هارون الرشيد وابن السماك .

من نعم الله عليك : تسخير الكون لمنفعتك :

سخَّر لك هذا الكون بما فيه ، جَعَله في خدمتك . السماء بشمسها وقمرها ونجومها في خدمتك . الأرض بسهولها وجبالها ووديانها وبحارها وأنهارها ، ونباتها وأشجارها ، وحيوانها ، كل هذه في خدمتك : ﴿ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (النازعات:٣٣) ، ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٣٣-٣٥) .

حينما تزرع الحب ، من علم الحبة أن تأخذ غذاءها من التربة ، وأن تمتص ما تحتاج إليه دون ما لا تحتاج إليه . من سخَّر لها القوانين والسُّنن حتى تنمو وتنبت وتزهر وتورق وتثمر؟ من غير الله سبحانه وتعالى .

من الذي ذلل لك الأنعام لتخدمك وهي صحيحة ، وتأكلها وهي ذبيحة ، وتنتفع بلبنها ودرها ولحمها ؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٧١-٧٣) .

هذا الكون كلُّه مسخَّر لك : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الجاثية:١٣) ، ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان:٢٠) . الله هو الذي سخَّر لك هذه النعم .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (إبراهيم:٣٢) ، لكم ، الله لا ينتفع بشيء من ذلك ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (إبراهيم:٣٢-٣٤) . كم من نعم الله سبحانه وتعالى علينا ؟

من نِعَم الله عليك : أن هداك للإسلام :

وأعظم هذه النعم كلها : أن هداك للإسلام ، أن جعلك مسلمًا تشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله ، لا تعبد شمسًا ولا قمرًا ، لا تعبد جنًّا ولا بشرًا ، لا تعبد ثورًا ولا بقرًا ، لا تعبد وثنًا ولا حجرًا ، إنما تعبد الله وحده .

أعظم النعم : نعمة الهداية للإسلام ، ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات:١٧) ، ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات:٧،٨) . أعظم النعم : أن بعث لك محمدًا خير نبيّ أرسل ، وأنزل عليك القرآن خير كتاب أنزل ، ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة:١٥١،١٥٢). مقابل هذا الإرسال لمحمد ﷺ - يتلو ويعلِّم ويزكّي - اذكروا الله سبحانه وتعالى واشكروه ، ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل:١١٤) ، ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت:١٧) .

هذه نعم الله سبحانه وتعالى ، فعلى الإنسان أن يعرف نعم الله في كل ذرة من الذرات . في كلِّ شيء حوله .

نعمٌ لا تعدُّ ولا تحصى :

لو نظرت إلى نفسك . إلى جسدك ، تجد أنك تحمل من النعم ما لا يعدُّ ولا يحصى . لو أنَّ إنسانا قال لك : بعني إحدى عينيك وأعطيك مائة ألف ، أو خسمائة ألف ، أو مليونًا ، أو مليونين . هل تبيع إحدى عينيك ببعض الملايين؟ هل تبيع العينين بعدة ملايين ؟

عيناك وحدهما تساويان ملايين ، فكيف بسمعك؟ وشمّك ، وحواسّك كلها ، يديك ، رجْليك ، كل عضو من أعضائك كم يساوي؟ الإنسان إذا أُصيب في كُلْيته

ماذا يجري عليه ؟ كم يناله من الأذى بسبب الغسيل والكلية المزروعة ؟ الله سبحانه وتعالى أعطاك بدل الكلية كليتين ، وقد قال الأطباء : يستطيع الإنسان أن يعيش بسدس كلية ، ولكن الله زودك بكليتين ليكون لديك رصيد احتياطي ، لصحتك .

كم إذن قيمة هذه الأجهزة والأعضاء التي تملكها؟ بكم مليون تُقدِّرها؟ أنت تحمل ملايين وأنت لا تدري قيمتها ، وتظنُّ أنه ليس عندك نعمة من الله سبحانه وتعالى . وكثير من الناس يشكون ، ومهما أوتوا فهم لا يشبعون ولا يشكرون ، كجهنَّم يقال لها : هل امتلأت؟ تقول دائمًا : هل من مزيد؟

أول ما ينبغي أن تعرفه هنا : أن تقدر قيمة النعم التي تحيط بك من كل جانب ، عن يمين وشمال ، ومن فوق ومن تحت ، ومن بين يديك ومن خلفك . ينبغي أن تعرف هذه النعم ، وتعرف أنها من الله تبارك وتعالى ، هو الذي أعطى ، هو المعطي والمعطي وحده . إذا خدمك إنسان أو أسْدَى إليك معروفًا فاشكره ، هذا مشروع : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »[1] ، ولكن اشكر كذلك مَن وفَّق هذا الإنسان ويسَّره ليؤدي لك هذه الخدمة أو يُسْدي إليك هذا المعروف . لماذا تنسى صاحب الفضل الأول؟ لا تنسَ الله سبحانه وتعالى .

ينبغي أن تعترف بنعمة الله ، وتعترف بفضل المنعم ، وتفرح بما آتاك الله سبحانه وتعالى .

روح الشكر :

شكر القلب هو روح الشكر ، وقد قيل : إنَّ داود عليه السلام قال : يا ربِّ كيف أشكرك وشكري نفسه نعمة منك تستوجب مني شكرًا جديدًا؟! فقال : إذا عرفت ذلك يا دواد فقد شكرتني[2].

---

(١) رواه أحمد (٧٩٣٩) ، وقال مخرجوه : إسناده على شرط مسلم ، وأبو داود في الأدب (٤٨١١) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤) ، وقال : هذا حديث صحيح ، وصححه الألباني في الصحيحة (٤١٦) ، عن أبي هريرة .

(٢) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢/٢٤٥) .

وقيل : إنَّ موسى قال : إلهي كيف أشكرك ، وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك ، لا يجازي بها عملي كلّه . فأوحى الله إليه أن يا موسى الآن شكرتني[1].

لذلك يقول الشاعر الصالح :

لك الحمد مولانا على كل نعمـــة ... ومن جملة النعماء : قولي لك الحمد

إذا كان شكري نعمـــة الله نعمـــةً ... عليَّ له في مثلـــها يجـــب الشـــكر

فكيف بلوغ الشـــكر إلا بفضـــله ... وإن طالت الآماد واتَّســـع العمـــر

شكر اللسان :

الاعتراف بفضل الله سبحانه وتعالى هذا هو شكر القلب . ثم يأتي عمل اللسان .

عمل اللسان : أن يثني العبد على الله سبحانه وتعالى بما هو أهله ، وآية ذلك أن يقول دائمًا : الحمد لله .

ممَّا ورثناه عن المسلمين طوال العصور أنَّ المسلم إذا سُئل عن حاله يقول : الحمد لله ، وإن كان فيه ما فيه . هذا من مواريثنا ومن قِيَمنا ، فالمسلم دائمًا يستشعر بقلبه ويقول بلسانه : الحمد لله على كلِّ حال .

الشكر في السرَّاء والضرَّاء :

كان النبيُّ ﷺ إذا رأى ما يحب قال : «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكره قال : الحمد لله على كل حال»[2] . يعني على السَّرَّاء وعلى الضرَّاء . الإنسان يحمد الله على هذا وهذا ، لأنه لا يعرف أين يكون الخير : ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:١٩).

وكما يقول ابن عطاء الله : «متى أعطاك أشهدك برَّه ، ومتى منعك أشهدك قهره ، فهو في كل ذلك متعرِّف إليك ، ومقبل بوجود لطفه عليك»[3]. إما أن يشهدك بره ، وإما أن يشهدك قهره ، فتتعرَّف على البر الرحيم أو تتعرَّف على القهار العظيم .

---

(١) رواه الإمام أحمد في كتاب الزهدعن أبي الجلد (٦٧/١) .

(٢) رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣) ، والحاكم في الدعاء (٤٩٩/١) ، وصحح إسناده ، وسكت عنه الذهبي ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٦٥) ، عن عائشة .

(٣) الحكمة الثالثة والتسعون من الحكم العطائية .

حَمْدُ الله تعالى على كل حال :

احمد الله دائمًا . علمنا النبي ﷺ أن نحمد الله على كلِّ حال :

إذا استيقظنا من نومنا نقول : «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[1].

إذا فرغنا من طعامنا نقول : «الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفيّ ولا مكفور»[2].

إذا شربنا الشراب البارد نقول : «الحمد الذي جعله عذبا فراتًا برحمته ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا»[3].

إذا ركبنا الدابة أو الطائرة أو السيارة نقول : «الحمد لله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف:١٣،١٤)»[4].

احمد الله دائمًا ، كن من الحمَّادين . من أوصاف المؤمنين : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ (التوبة:١١٢) الذين يحمدون الله على كلِّ حال ، فهذا هو المطلوب من المسلم ليقوم بحق الشكر .

على المسلم أن يحمد الله بلسانه ، وقد جاء في الحديث الصحيح : «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان»[5].

---

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣١٢) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٤٩) ، والترمذي في الدعوات (٣٤١٧) ، والنسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة (١٠٥١٥) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٨٠) ، عن حذيفة .

(٢) رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٩) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٦) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٨٤) ، عن أبي أمامة .

(٣) رواه الطبراني في الدعاء (٨٩٩) ، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/٨) ، والبيهقي في الشعب باب تعديد نعم الله (٤٤٧٩) ، وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٢٠٢) ، عن أبي جعفر مرسلا .

(٤) رواه أحمد (٧٥٣) ، وقال مخرِّجوه : حسن لغيره ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٢) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٦) ، وقال : حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٢٤) ، عن علي بن أبي طالب .

(٥) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣) ، وأحمد (٢٢٩٠٢) ، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧) ، عن أبي مالك الأشعري .

كلمة (الحمد) في القرآن الكريم :

الله سبحانه وتعالى بدأ كتابه بالحمد ، فأول آية في القرآن بعد البسملة : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الفاتحة:٢) . وجعل هذه الكملة ـ كلمة الحمد ـ مُفْتتح كلام أهل الجنة ، فعندما يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يقولون : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ (الأعراف:٤٣) ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (الزمر:٧٤) . كما جعلها آخر دعواهم : ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (يونس:١٠) .

شكر الجوارح والأركان :

ثم بعد ذلك : الشكر بكيان الإنسان كله ، بجوارحه وأركانه وبدنه . عليه أن يستعمل بدنه ، ويستعمل جوارحه في طاعة الله ، ويستخدم نِعَم الله تعالى في طاعته والقيام بحقِّه ، ولا يستخدم نعمه في معاصيه .

لا يجوز أن يُنعم الله تعالى عليك بنعمةٍ فتستخدم نعمة الله في معصية الله .

التحذير من استخدام النِّعم في معصية الله :

الله آتاك **مالاً** ، فلا يجوز أن تستخدم هذا المال فيما يغضب الله ، في فعل الفجور وشرب الخمور ، والذهاب هنا وهناك حيث مسارح المعاصي في بلاد الكفر وغيرها .

آتاك الله **العقل** ، فلا تستخدم عقلك في إيذاء الناس ، ولا في طريق الشر .

آتاك الله **المنصب** ، فلا تستخدم نعمة المنصب في جَلْب المال الحرام ، وفي الإثراء بغير حق عن طريق الرشوة ، التي يسمونها عمولة ، ولا تُوَلِّ المساعدين لك من محاسيبك ، بل من الأتقياء الأمناء .

آتاك الله **السيارة** هذه التي قربت البعيد ـ بعد أن كنت تركب الحمار أو تركب الناقة ـ لم تصنع فيها مسمارًا للأسف ، فاستخدمها في طاعة الله ، لا تستخدمها في الذهاب إلى حيث حرَّم الله .

أعطيت سفينة ـ أو يختًا أو قاربًا ـ فلا تستخدمها مع أصحابك في الذهاب إلى نزهات يُحلُّ فيها الحرام ، وتُرتكب فيها الموبقات .

أعطاك الله هذا **التلفزيون** ، فلا تستخدمه إلا في طاعة الله ، لا تستخدمه كما يفعل الناس الآن ـ الذين يركبون الأطباق أو ما يسمُّونه (الدش) وهذه الأشياء ـ ليجلبوا القنوات من أوربا وغيرها ، حيث تعرض المشاهد الفاضحة ، والمناظر التي يندى من ورائها الجبين ، ولا يستحيي الناس ـ وعندهم الزوجات والبنات والشبَّان والأولاد الصغار ـ أن يجلبوا هذه الأشياء وهذه المحطات والقنوات التي تُروِّج الفساد وتنفق الباطل وتشيع الفاحشة وتذيع الانحلال .

اشكروا نعمة الله في **التليفون** ، هذا الذي يجعلك وأنت في بيتك تكلِّم العالم في المشرق والمغرب . لا تستخدموه أيها الناس وأيها الشبان في معاكسة الفتيات والنساء ، وفي المعاصي التي تُسخط الله عزَّ وجلَّ .

كم من أناس قلبوا نعمة الله إلى أدواتٍ لمعصية الله ، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ (إبراهيم:٢٨) .

إنَّ الخطر كل الخطر : أن يستخدم الناس نِعَمَ الله في معصية الله ، وبذلك يكفرون بالنعمة فتزول عنهم .

قانون الله في شكر النعمة وكفرانها :

إنَّ الله قد وضع قانونًا : بالشكر تحفظوا النعمة وتتزيَّدوا بها ، وبالكفر ـ كفر النعمة ـ تزول النعمة ولا تبقى ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٧) . ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ (النحل:١١٢).

ذكر لنا القرآن قصَّة سبأ وأهل سبأ ، وقد أنعم الله عليهم بأرض طيبة : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾(سبأ:١٥)، ولكنهم لم يقوموا بحقِّ النعمة ، ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ

مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:١٦) ، لماذا ؟ ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ (سبأ:١٧).

إنَّ الله لا ينزل نقمه على الناس ابتداء ، إلا إذا انحرفوا عن الصِّراط . إلا إذا كفروا بالنعمة . . . إلا إذا لم يعرفوا قدر النعمة وقدر منعِّمها .

هل أدَّينا شكر نِعمَ الله تعالى ؟

ما أعظم نِعَمَ الله علينا نحن المسلمين ، نِعَمٌ كثيرة ولكن هل أدَّينا شكرها؟ هل قلنا : نحمد الله على هذه النعمة؟ سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ آتاه الله النعمةَ فشكرها وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل:١٥) .

ولما تكلَّمت النملة وفهم كلامها : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل:١٩) . اعتبر النعمة عليه نعمة ، والنعمة على والديه نعمة أيضًا ، كما أن النعمة على الأولاد نعمة . إذا رزقك الله أولادًا نجباء فهم نعمة ينبغي أن تشكر الله سبحانه وتعالى عليها . نِعَمُ الله كثيرة

وحينما جاء سليمان عرش بلقيس من اليمن قبل أن يرتدَّ إليه طرفه قال : ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (النمل:٤٠).

منفعة الشكر عائدة إلينا في الدنيا والآخرة :

إذا شكرنا الله فمصلحة الشكر عائدة إلينا ، عائدة إلينا في الدنيا قبل الآخرة :

في الدنيا : حفظ للنعمة وزيادة فيها ، كما قال الشاعر :

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعها ... فإنَّ المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فشكر الإله يزيل النقم[1]

---

(١) من شعر علي بن أبي طالب .

وفي الآخرة : إذا شكرنا الله سبحانه وتعالى أمَّنا من العذاب ، يقول الله تعالى : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ (النساء:١٤٧).

الله سمَّى نفسه (شاكرًا) و(شكورًا) ، ويريد منا أن يكون كلٌّ منا شاكرًا وشكورًا، وما أجدرنا أن نشكر نِعَمَ الله تبارك وتعالى ، وأن نتأمَّل في هذه النعم ، وهي والله كثيرة وكثيرة ووفيرة .

دخل أحدهم على بعض الصالحين ، وقد نال المرض منه كلَّ منال ، ولم يبق في جسده قطعة إلا وفيها ألم ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلى به كثيرًا من خلقه . فقال : يا هذا ، وماذا عافاك منه بعدما أنت فيه؟ كل جسمك أوجاع وآلام وتقول : (الحمد لله الذي عافاني ممَّا ابتلى به كثيرًا من خلقه)! قال : يا هذا ، حسبه أن جعل لي لسانًا يذكره وقلبا يشكره .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الشاكرين ، وأن ينعم علينا بالمزيد ، وأن يجعلنا أهلا لنعمته ، إنه سميع قريب .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

شكر الإنسان أخاه الإنسان :

شكر الله تبارك وتعالى يقتضي أن يشكر الإنسان أخاه الإنسان إذا قدَّم إليه معروفًا ، أو أسدى إليه خدمة ، فهذا من شكر الله تبارك وتعالى . ولذلك قال النبي ﷺ : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس »[1].

---

(١) سبق تخريجه صـ٢٣٢ .

وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ (لقمان: ١٤). فوالداك لهما فضلٌ ولهما حقٌّ بعد الله تبارك وتعالى ، فَقَرَن الله شكرهما بشكره ، وهذا دليل على أن شكر العباد مطلوب .

ولهذا جاء في الحديث :« مَن صنع إليه معروفًا ، فقال لصاحبه : جزاك الله خيرًا ، فقد أبلغ في الثناء »[1] . أقلّ ما يشكر به الإنسانُ الإنسانَ إذا لم يستطع أن يكافئه بالمثل ، أن يدعو له ويثني عليه ، ويقول : جزاك الله خيرًا ، ومَن قال : جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء .

* * *

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٥) ، وقال : حديث حسن جيد غريب ، والنسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة (٩٩٣٧) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٦٨) ، عن أسامة بن زيد .